تمهيد:

توالى على حكم تونس خلال العهد الحسيني 19 بايا في مدة تزيد عن قرنيين ونصف، ويعد حمودة باشا خامس بايات تونس، تولى ولاية العهد سنة 1777 واعتلى العرش سنة 1782 (بيعة رسمية)، حيث دام عهده قرابة ثلث قرن من الزمن حتى سنة 1814.

1. نبذة عن حمودة باشا:

ولد يوم 8 ديسمبر 1759 بالجزائر من ام جارية قرجية الأصل وهو الابن الأكبر لعلي باشا، تمتع حمودة باشا بثقافة مرموقة وواسعة مكنته من فهم مصالح القوى والدول الغربية بأروبا، وتميز بصفات وخصال تحتم الاعجاب والتقدير حتى من ألد أعداءه الى درجة تلقيبه ب "الباي العظيم"، حيث أحاط نفسه برجال أكفاء، فقد اعتمد على وزراء وقواد جيش ومستشارين لتنفيذ سياسته الداخلية والخارجية، توفي سنة 1814.

2. سياسته الداخلية : عند توليه الحكم كانت الأوضاع مزرية ضائقة مالية، الكوارث الطبيعية، الأوبئة و المجاعات...، لهذا قام بعدة إصلاحات في مجالات مختلفة :

– إداريا:

– أول شيء قام به حمودة باشا هو انهاء خلافاته مع أفراد عائلته بالحسنى حينا وبالشدة أحيانا أخرى (سياسة المهادنة والقضاء على الثورات الداخلية).

– توظيف الأهالي التونسيين في الحكم والإدارة، وازاحة الاتراك من المراكز الإدارية والعسكرية، وهذا نظرا لماضيهم السيء ولجرائمهم، فعمل على توحيد السلطة بيده وعوضهم بالتونسيين.

– الاستعانة باليهود والمماليك الصغار، النصارى واليهود، وتسليمهم أهم المناصب الإدارية والحكم.

– الاستعانة بالأعيان والعلماء (استشارتهم في أمور البلاد)

– نهاية التبعية للباب العالي.

– عسكريا: ركز حمودة باشا على الجيش واولاه اهتماما بالغا فقام بما يلي:

– الاعتماد على القوة المحلية (آهالي التونسيين) بدلا من القوة الإنكشارية

– تسليح وتدريب عناصر من الأهالي الذين لهم الروح الوطنية.

– تكوين جيش وطني محلي.

- نزع السلاح للجند الترك وعزلهم...

- انشاء المصانع الحربية لصناعة البارود، المدافع وبناء السفن...

- أمنيا:

- حماية الثغور الساحلية وبناء أسوار المدن الداخلية ووضع الحاميات عليها.

- إقامة الأبراج، الحصون والثكنات لحفظ الامن وضمان الاستقرار للبلاد.

- تعزيز قوة الشرطة التي كانت العمود الفقري لأمن البلاد.

- إقامة عقوبات صارمة ضد المجرمين واللصوص، والحد من جرائم الجند التركي.

- اقتصاديا: حيث اتخذ حمودة باشا سياسة اقتصادية صارمة ويتمثل هدفها الزيادة في الإنتاج، ولذلك ادخل طرق علمية حديثة من اجل تحسينه، فحرص على تشجيع الصناعات المحلية وإيجاد الأسواق الخارجية، وذلك من خلال ابرام معاهدات وصداقات مع الدول العربية والأوربية، كذلك عمل على اسقاط بعض الضرائب واستبدلها ب (**المشارطة** وهي نوع من أنواع الضرائب تسمى **الاتفاق المالي**)، ويسقط هذا **الاتفاق المالي** على الأهالي في حالة تعرض البلاد للكوارث الطبيعية والمجاعات.

- اجتماعيا: فكانت له تدابير إصلاحية استهدفت تغيير بعض المظاهر الاجتماعية السيئة كالحد من شرب الخمر والزنا، منع الحاجة والتوسل، عدم اتلاف المال والبعد عن الاسراف نتيجة لفراغ خزينة الدولة.

- صحيا: قام بجلب أطباء من اوروبا لوضع حدا للوباء الذي قضى على عدد كبير من السكان، ولهذا شدد في استعمال طرق الوقاية من عدوى الأوبئة والامراض.

- دينيا وفكريا: قام بإنشاء المساجد وتجديد الزوايا وبناء المدارس، واهتم بالعلم والعلماء وأمر بالاعتماد على المذهب المالكي، حيث ظهر عدد كبير من العلماء في عهده، وأبطل بعض البدع المنحرفة الدخيلة.

3. سياسته الخارجية:

هناك عوامل خارجية تمثلت في الضعف والانحطاط الذي كانت تتخبط فيه الدولة العثمانية أنداك سواء في الداخل أو الخارج، إضافة الى انشغال الدول الأوربية في حروبها (حرب السبع سنوات1756-1763، حروب نابليون...) وعدم اتحادها في إيقاف القرصنة التونسية، وهو العامل الذي ساعد حمودة باشا لاتخاذ السياسة التي يريدها لبلاده، ويسير على مقتضاها في الداخل والخارج.

كانت تهدف سياسته الخارجية الى تحرير تونس من التسلط الخارجي من جهة، ووضع البلاد في مرتبة الدول ذات السيادة والاحترام من جهة أخرى، ولتحقيق ذلك اتبع طريقتين:

– **طريق الكفاح والحرب**: حيث شهدت تونس خلال عهد حمودة باشا عدة حروب: حرب مع البندقية (1784-1792)، حرب مع طرابلس الغرب (1794)، مع الجزائر سنة 1807 من أجل الحد من التبعية لداي الجزائر، والقضاء على جند الترك سنة 1811، وهذا بعد ان ضمن سلامة علاقته الخارجية ووضع البلاد الداخلي جيد.

– **طريق تنمية الصداقات مع الدول الاوربية**: من حيث الخطوط العامة لسياسة حمودة باشا الخارجية عمله الدائم على حفظ العلاقات الطيبة مع حكام الدول الاوربية، مع سعي توطيد صداقاته معهم، وذلك سواء بواسطة قناصلهم المعتمدين لديه، او بواسطة سفرائه ومبعوثه على أساس مصلحة بلاده بالدرجة الأولى، وابرام معاهدات، فتميزت علاقاته خاصة مع فرنسا وبريطانيا ثم بعدها مع الولايات المتحدة الامريكية.

خاتمة:

يعتبر عهد حمودة باشا العصر الذهبي لتاريخ تونس الحديثة، حيث جاءت سياسته لنهاية التبعية للباب العالي، وتثبيت أسس الاستقلال والاستقرار واعلان السيادة الوطنية التونسية، وبسط سلطته على أقاليم البلاد وإقامة علاقات ومعاهدات صداقة مع الدول الاوربية، ورغم سياسته الخارجية ونجاحها الا انه لم يستطع ان يجعل تونس تتأثر بما كان يجري في العالم الأوربي من تطور وتقدم ونهضة علمية.